

يستطيع أن يستمتع بما حوله من فنون الزهر والشجر، وقد تعود حين كان يسعى في جنته هذه ألا يتقدم إلا ليتأخر وألا يمضي إلا ليقف، وكانت له وقفات طويلة عند هذه الألوان من الزهر الذي نُسَّق أجمل تنسيق وأروع، يحدث في هذه الزهرة ويمتحن هذا النجم، وربما تحدث إلى هذا البستاني أو ذاك سائلاً حيناً وأمراً حيناً آخر، ولكنه في هذا اليوم يمضي أمامه لا يُلوِّي على شيء ولا يفكر في شيء ولا يقف عند شيء.

وليس من المحقق أنه كان يرى هؤلاء البستانيين الذين كانوا ينهضون إذا رأوه مقبلاً من بعيد، فيحيون وينتظرون أن يلقي إليهم السؤال أو يصدر إليهم الأمر، يبتهجون بذلك في دوائر ضمائرهم ويتمنون به الأمانى.

ولكن الملك كان يمر بهم ذاهلاً عنهم، أو كان ينظر إليهم نظره إلى التماثيل القائمة التي لم يكن ينتظر أن تسمع منه كلاماً أو ترد عليه رجع حديث، وكان هؤلاء البستانيون يُسْقَطُ في أيديهم إذا مر بهم الملك غافلاً عنهم غير مكثر بهم، فيردون أنفسهم إلى التعزي عن هذه الابتسامة التي كانوا ينتظرونها، وعن هذا الأمل الذي كانوا يداعبونه، ويقول بعضهم لبعض: «ما بال مليكنا كثيراً محزوناً منذ اليوم؟»

ولكن ملكهم لم يكن كثيراً ولا محزوناً، وإنما كان نشوان ثملاً قد صرفته الحياة عن الأحياء وصرفته الطبيعة عن الناس والأشياء؛ فهو يمضي أمامهم لا يُلوِّي على شيء، حتى إذا بلغ من جنته مكاناً بعينه انحرف إلى شماله فمضى في ممر ضيق ضئيل تحف به من جانبيه أشجار ضخام في الفضاء طوال في السماء، قد تضامّت غصونها واختلطت أوراقها حتى انعقد منها سقف كثيف لا ينفذ منه ضوء الشمس إلا ضئيلاً هزياً بعد مشقة شاقة وجهد جهيد، والملك يمضي أمامه في هذا الممر الضيق كأنه النفق، حتى إذا مشى غير قليل انفرجت هذه الشجرات الملتفة المتكاثفة قليلاً قليلاً، حتى جعلت بينها مكاناً رحباً فسيحاً قد فرش بالعشب المتكاثف، وقامت في أطرافه نجوم وأزهار لازت بهذه الأشجار الضخام الطوال كأنما تحتمي بضخامتها وطولها من العاديات. هنالك وقف الملك فأطال الوقوف، وتنفس هذا الهواء العذب الرطب فأطال التنفس، ثم جلس على الأرض متهاكاً متثاقلاً، ثم أسلم نفسه إلى ما حوله، فلم يشعر بشيء ولم يحس شيئاً، ولكنه يفيق من نومه مذعوراً أو كالمدعور؛ فقد سمع صوتاً حلواً يشبه صوت الماء وهو يتحدّر في غديره ذاك بين النرجس والياسمين، لولا أن في هذا الصوت حياة لم يتعود أن يجدها في خيرير الغدير، ولولا أن في هذا الصوت تقطعاً وتكسراً وتهالكاً، لم يتعود أن يجد مثله في تحدّر الماء بين النرجس والياسمين، ويفتح الملك عينيه، فيرى فتنة لا تلبث أن تملك عليه سمعه وبصره وقلبه وعقله جميعاً.